المبحث الثالث: عصور ما قبل التأريخ

بدأ استيطان الإنسان الأول في وادي النيل منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ أي العصور التي يطلق عليها مصطلح (العصور الحجرية) والتي

تُقسم إلى ما يلي :

1. العصر الحجر القديم : تكّون نهر النيل من الدهور الجيولوجية القديمة واتخذ شكله الحالي في العهد الجيولوجي المسمى (بلايوسين) حيث كانت الأحوال المناخية في الشرق الادنى القديم تتمتع بأمطار كثيرة وغزيرة وكانت العصور الممطرة تحل أبان العصور الجليدية في اوربا وكذلك كانت تحدث أزمان جفاف خلال هذه العصور، وكانت الحياة مزدهرة بالحيوانات والنباتات في شمال افريقيا ومنطقة الصحاري حيث وجدت آثار الانسان الصيّاد فيها ، إضافة إلى وجود هذه الآثار على شرفات (شطآن) نهر النيل والتي تمثل العصور الممطرة وعصور الجفاف المذكورة . وقد دُرست هذه الشرفات من الناحية الأثرية والجيولوجية فوجد لنهر النيل ثمانية شرفات قديمة ، ولم يُعثر على آثار للانسان الاول إلا في الشاطئ الخامس وهو بذلك يمثل اول أطوار العصر الحجري القديم حيث وجدت فؤوس حجرية من الدور المعروف بأسم (الدور الشيلي) وفي الشاطيء السادس وجدت أدوات حجرية من (الدور الآشولي) ومن الشاطئين التاليين وجدت آثار من الدور (الليفالوازي) و(الموستيري) كما وجدت أدوات وآلات حجرية من النصف الثاني من العصر الحجري القديم في موضع (سبيل) وقرب الفيوم ، كما وجدت مثل هذه الأدوات والآلات الحجرية في أفريقيا الشمالية وهي تعود لانسان النياندرتال وهذا يؤدي إلى استنتاج مهم وهو ان وجود هذه الآلات والأدوات في مصر وشمال افريقيا هو دلالة على وجود الإنسان الحديث أيضاً .

2. العصر الحجري الحديث : بدأ عصر الجفاف في نهاية العصر الحجري القديم في افريقيا وفي البوادي المجاورة لنهر النيل ولما ازداد هذا الجفاف التجأت جماعات من أهل العصر الحجري القديم الى ضفاف النيل ذات المياه الدائمة والى الواحات القريبة ، فأجبرت الظروف الجديدة الانسان على التحول من طور الصيد وجمع القوت الى طور الزراعة وتدجين الحيوانات (طور إنتاج القوت) وكانت الأحوال المناخية مواتية لذلك الانقلاب الاقتصادي ، فإلى جانب عامل الجفاف كانت تنبت في حدود الوادي الاعشاب البرية ولا سيما الحنطة والشعير البري اضافة الى خصب الوادي وانتظام فيضان النيل . وأشهر مواقع هذا العصر في مصر الموقع المعروف بأسم دير طاسة القريب من بداري ومن ضفة النيل الشرقية ، وقد عرف مستوطنو هذا الموقع زراعة الحنطة والشعير واستخدموا رحى الحجر لطحنها كما دجنوا الحيوانات ولكن ليس بشكل واسع ، واقتصرت زراعتهم على الاكتفاء الذاتي ، وقد بقي صيد السمك قوتاً أساسياً عندهم ، كما إنهم عرفوا صناعة الفخار والنسيج واستعملوا الخرز والمحار والصدف للزينة . ومن المستوطنات الأخرى لهذا العصر مستوطن وجد في الفيوم وقد ثبت إن أهل هذا المستوطن زرعوا الحبوب بصورة أكثر انتظاماً من اهل مستوطن دير طاسة وكانوا يحصدون بمناجل مصنوعة من حجر الصوان المسنن المثبتة بالخشب ويخزنون غلتهم في حفر في الأرض ، واستعملوا الرحى لطحن الحبوب ودجنوا الخنزير والماشية والغنم والماعز واستعملوا القوس والسهم والفؤوس الحجرية ، وظلوا يمارسون صيد الحيوان والسمك وصنعوا أواني الفخار واستعملوا الخرز والصدف والمحار للزينة .

ويمثل موقع مرمدة الواقع في الحافة الغربية من الدلتا مرحلة أكثر تطوراً من سابقاتها حيث وجدت فيه آثار بيوت من الطين والحصران واستمرت فيه زراعة الحبوب وطريقة حصدها بمناجل من حجر الصوان وتدجين الحيوانات وصيدها بالقوس والسهم وتحسنت صناعة الفخار واعطيت لوناً أحمر واسود ، ووجدت في هذا الموقع مغازل تدل على ممارسة الحياكة واستمر سكانه في استعمال الزينة واضافوا إليها حلية من العاج ومن عظام ناب الخنزير، ووجدت قبورهم داخل بيوت السكنى

أما موضع العوماري القريب من حلوان فيمثل مرحلة تطورية رابعة وهو يشبه في مخلفاته الأثرية مخلفات مستوطن مرمدة .

وبشكل عام فأن أطوار العصر الحجري الحديث في مصر الوسطى والعليا مستمر بشكل تطوري من (الدور الطاسي) بخلاف مثيله في مصر السفلى الذي تكون أدواره وآثاره غير مستمرة .

3. العصر الحجري المعدني : إن أهم خصائص هذا العصر ، الذي يعرف بأسم (فجر الحضارة) والذي كان مقدمة تمهيدية لظهور الحضارة الناضجة ، توطد الحياة المستقرة واتساع الزراعة والقرى ومعرفة التعدين ولاسيما النحاس وظهور طلائع الدويلات والوحدات السياسية التي اتحدت فيما بعد وشكّلت مملكة العصر الموّحد . وتُعرف أقدم ادوار هذا العصر بـ(الطور البداري) الذي يعتبر تطوراً من العصر الحجري الحديث واهم ما يميزه كثرة المواد المستوردة ولاسيما من جهة سيناء ونوبية وسورية كما عرفوا معدن النحاس ، وتشير نماذج القوارب الفخارية الى معرفة بالملاحة ، ونلاحظ تقدماً في صناعة الأواني الفخارية وخاصة تلك المودعة في القبور مع الموتى ، كما زخرفوا ونقشوا الأواني الفخارية وصنعوا من العاج ومن الطين دمى تمثل نساء يرجح أنها من نوع (الآلهة- الأم) .

وأعقب هذا الطور (الطور الاماري) الذي قد تطور عن الطور السابق البداري كما أن سكان وادي النيل في هذا العصر قد بدأوا في ممارسة طرق الري المنتظمة في وادي النيل وتركوا زراعة وديان الصحراء ، فاتسعت الزراعة واتسعت معها المستوطنات وتكاثر السكان كما أن القرى اخذت تصبح مدناً صغيرة مسوّرة ، ويعتقد إن هذه القرى اتخذت نظام الطوطمية حيث كان لكل قبيلة او قرية حيوانها المتخذ طوطماً فقد وجدت بعض الحيوانات منقوشة على اواني الفخار مثل التمساح والعقرب وحيوانات اخرى فسرت بانها تشير الى نظام الطوطم ، كما يلاحظ التخصص واتساع التجارة أيضاً ، وعُرفت صناعة السفن من البردي ، وتبلورت المعتقدات الدينية حيث جهزت القبور بالأثاث والأدوات الضرورية وتنوعت زخرفة الأواني الفخارية ، واستمر الناس في تفننهم بالزينة ولاسيما استعمال كحل العيون ومارسوا الوشم وصنعوا القلائد من قشور بيض النعام وحجر العقيق والحجر الأخضر .

وأعقب (الطور الاماري) طوراً آخر هو (الطور الجرزي) الذي تميز بالمخترعات الصناعية واتسعت التجارة الخارجية والاتصالات الثقافية ، وأصبحت الزراعة أساس الحياة الاقتصادية للفلاحين معتمدة على الارواء وتحسن بناء بيوت الناس وظهرت المدن الصغيرة فوق القرى السابقة مثل نقادة وهيراكونبولس وكثر استعمال النحاس واستعملت إلى جانب السفن الحيوانات للحمل كالحمير بوجه خاص ، وأصبح هناك فائض في الانتاج الزراعي لاعالة طبقات الصناع والتجار وازادت الثروة ، وظهرت طلائع الكتابة الهيروغليفية الصورية .

وقد أسفرت الدراسات التاريخية والأثرية الى أن هناك عناصر أساسية في حضارة وادي النيل تمتد في اصولها الى حضارة وادي الرافدين وبوجه خاص العهد الجرزي وفي عهد السلالات الأولى واهم تلك العناصر الاختام الاسطوانية واستخدام نظام الطلعات والدخلات في العمارة ونظام الكتابة والمصاطب والرسم والنحت ونظام السفن الشراعية وفخاريات (الطور الجرزي) التي أشبه بفخاريات وادي الرافدين في طوري الوركاء وجمدة نصر .